# القيم الأخلاقية وأثرها في حماية البيئة واستدامة التّنمية

أ . عبد الرّحمان بلعالم
مخبر الفقه الحضاري ومقاصد الشّريعة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة (01) الجزائر

**ملخّص:**

البيئة ليست قضية موارد وثروات فحسب، وإنّما هي علاقة إنسانية يمتزج فيها الدّنيوي بالدّيني، والمادّيّ بالقيميّ، لصياغة حياة تليق بالرّسالة التي كلّف بها الإنسان على وجه الأرض (الاستخلاف/العمارة)؛ وعندئذ تكون القيم الأخلاقية من أهمّ القواعد التي تُسهم بحظّ وافر في حماية البيئة.

ولهذا الغرض جاء هذا البحث الموسوم بـ: القيم الأخلاقية وأثرها في حماية البيئة واستدامة التّنمية، لمعالجة العناصر التّالية:

- **مفهوم البيئة وأهمّ عناصرها**، إذ الحكم عن الشّيء فرع عن تصوّره.
- المبادئ العامّة الحاكمة لقضية النّظر إلى البيئة، لتحديد الإطار المنظّم لعلاقة الإنسان بالبيئة.
- **القاعدة الأخلاقية أسّ وسائل حماية البيئة**، للتّأكيد على مبدإ الإحسان والرّفق والاعتدال والشّكر.
- منظومة الأخلاق البيئية في نصوص الوحي بشقيه، توازنا، وإصحاحا، وتنمية.
- المسؤولية الأخلاقية عن الإضرار بالبيئة، منعا للطّغيان في الميزان.

**الكلمات المفتاحية**: البيئة، القيم، حماية البيئة، منظومة الأخلاق البيئية، مسؤولية الإضرار بالبيئة.

**Abstract**

The environment is not an underground resource, but it is more than that, It represents religion and the world, material affairs with moralism, so as to make man a suitable place to live and practice his work.

When man understands this, he will be the first assistant in the protection of the environment. In environmental protection and sustainable development; it discusses the following:

Ethics is the first factor to protect the environment.

List texts of Quran and Sunnah calling for protection of the environment.

A statement that there is a moral responsibility is mandatory on humanity to protect the environment.

Ethical rules are the most important legitimate means of spreading environmental awareness.

The subject addresses the concepts of the environment and the ethical responsibilities associated with it.

Keywords: environment, ethics, environmental protection, environmental moral system, responsibility for environmental corruption.

## مقدمة:

الإنسان كائن شديد الاتّصال بالبيئة، فهو عنصر من أهمّ عناصرها، ومكوّن فريد من مكوّناتها، وعلاقته ببيئته الطّبيعية علاقة أمين استؤمن عليها، بكلّ ما تحمله دلالة الاستئمان من وفاق وانسجام وتكامل معها؛ وهو خلال تفاعله مع هذه البيئة لا شكّ سيواجه أحداثا مستمرّة، تحتّم عليه ألّا يتجاوز الحدود التي فرضتها السّنن والقواعد الثّابتة للفطرة الإنسانية، حتّى يحقّق الاستغلال الأمثل للموارد الطّبيعية، ويضمن الاستمرار في التّمتّع بها عبر الزّمان والمكان، بما يحافظ على نصيب الأجيال القادمة، لا سيما مع الموارد غير المتجدّدة.

وبهذا فإنّ البيئة أكبر من أن تكون مسألة موارد وثروات، إذ هي علاقة إنسانية يمتزج فيها الدّنيوي بالدّيني، والمادّيّ بالقيميّ، لصياغة حياة تليق بالرّسالة التي كلّف بها الإنسان على وجه الأرض (الاستخلاف/العمارة)؛ وعندئذ تكون القيم الأخلاقية من أهمّ القواعد التي تُسهم بحظ وافر في حماية البيئة.

ولهذا الغرض جاء هذا البحث الموسوم بـ: **القيم الأخلاقية وأثرها في حماية البيئة واستدامة التّنمية،** قصد معالجة العناصر التّالية:

- **مفهوم البيئة وأهمّ عناصرها،** إذ الحكم عن الشّيء فرع عن تصوّره.
- **المبادئ العامّة الحاكمة لقضية النّظر إلى البيئة،** لتحديد الإطار المنظّم لعلاقة الإنسان بالبيئة.
- **القاعدة الأخلاقية أسّ وسائل حماية البيئة،** لتأكيد مبدإ الإحسان والرّفق والاعتدال والشّكر.
- **منظومة الأخلاق البيئية في نصوص الوحي بشقيه،** توازنا، وإصحاحا، وتنمية.
- **المسؤولية الأخلاقية عن الإضرار بالبيئة،** منعا للطّغيان في الميزان.

وقد دعاني للكتابة في هذا الموضوع أمور عدّة، أهمّها:

- الاستجابة لداعي الإسلام ونداء الضّمير إلى حماية البيئة (الأمّ الرّؤوم) التي نعيش في حناياها.
- الأهمّيّة الكبرى للموضوع في نطاق الفكر الأخلاقي والقانوني، لأنّ السّعي إلى حماية البيئة لَهُوَ بحقٍّ أحد الضّمانات الكبرى لوقاية المجتمع الدّولي من المخاطر التي تحدق به برا وبحرا وجوا.
- ارتباط الموضوع بنعمة الأمن كونُها من أجلّ النّعم التي تقتضي شكر المنعم، وحماية البيئة والمحافظة عليها، وسيلة إلى تحقيق ذلك.
- إنّ البحث فيما تتمُّ به مواجهة الفساد البيئي بغرض تحقيق إنسانيّة الإنسان، وصيانة البيئة التي يعيش فيها، لَهُوَ مقياس الحضارة ومعيارُها.

كُلُّ هذه الأسباب توالدت في نفسي فكانت عاملاً قويّاً دفعني إلى اختيار هذا الموضوع؛ وهَهُنَا أجدني مردِّداً مع أبي المعالي الجُوَيْنِي دعاءه: (اللّهمّ يسّر بجودك وكرمك منهج الصّواب، وجنّبني غوائل التّعمُّق والإطناب)[1].

## مفهوم البيئة وأهمّ عناصرها:

1- غياث الأمم في التياث الظُّلَم: الجويني، تح: فؤاد عبد المنعم، ومصطفى حلمي، دار الدّعوة، الإسكندرية، مصر، ط01، س1979م، ص267.

لتحديد مفهوم البيئة لا بدّ من التّطرّق إلى الدّلالة اللّغوية، فالمدلول العلمي الذي يعطي صورة للمدلول القانوني؛ وعليه فالبيئة كلمة مستحدثة في التّراث العربي، وأوّل من استخدم هذا المصطلح هو الأديب الأريب ابن عبد ربّه الأندلسي المالكي في كتاب الجمانة من كتابه الماتع: "العقد الفريد"، فقد استخدمها في الدّلالة على معنى الوسط الطّبيعي (الجغرافي المكاني الإحيائي) الذي يعيش فيه الكائنات الحيّة بما فيها الإنسان، وأضاف إلى ذلك المؤثّرات المتّصلة بالمناخ الدّيني والأخلاقي والفكري والاجتماعي[1].

ومع هذا فإنّ الأصل اللّغوي لكلمة البيئة في لغة العرب يعود إلى الجذر (ب و أ) الذي أُخِذ منه الفعل الماضي (باء)، وبالنّظر في معاجم العربية يُتوصّل إلى أنّ إطلاقات هذه المادّة تستعمل في المعاني التّالية:

- **الموضع والمنزل والإقامة:** يقال: أبأت بالمكان، أي أقمت به؛ وبوّأته بيتا، إذا اتّخذت له بيتا[2]؛ والبيئة والمباءة، المنزل[3]؛ ومنه قيل للنّكاح باءة، لأنّ الأصل في الباءة المنزل؛ وقيل لعقد النّكاح باءة، لأنّ من تزوّج امرأة يكون قد بوّأها منزلا[4]؛ ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ الأعراف: ٧٤، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الحشر: ٩، أي الذين نزلوا بالمدينة المنوّرة واستوطنوها إيمانا بالله ورسوله، ونُصرة للدّين وإعزازا للأمّة.
- **الإصلاح والتّهيئة:** كقولهم: تبوّأ المكان، إذا أصلحه وهيّأه؛ وأباء فلان فلانا منزلا وبوّأه إيّاه أو له أو فيه، إذا هيّأه له وأنزله ومكّن له فيه؛ ومنه قول القائل:

وبُوِّئَت في صميم معشَرِها    وتمّ في قومها متبوَّؤُها[5]

- **الرّجوع والاحتمال:** فيقال: باء إلى الشّيء، إذا رجع[6]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ البقرة: ٦١، أي رجعوا به وصار عليهم؛ ويقال: بُؤْتُ بالذّنب، أي احتَمَلتُه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾ البقرة: ٩٠، أي احتملوا؛ وفي الحديث: ((**أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي**...))[7]، بمعنى أُقِرُّ وأَرجع وأَلتَزِم[8].
- **الحال:** يقال: باء ببيئة سوء، أي بحال سوء؛ وإنّه لحسن البيئة، أي الهيئة والحال[9].
- **التّكافؤ وتساوي الشّيئين:** فيقال: إنّ فلانا لَبَوَاء بفلان، أي إن قُتِل به كان كُفْؤًا له[1].

---

1- العقد الفريد: ابن عبد ربّه، تح: مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، س1404هـ/ 1994م، ج01، ص.

2- لسان العرب: ابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير ورفاقه، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ط، دس، ج01، ص382.

3- م ن، ج01، ص382؛ الصّحاح: الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط04، س1990م، ج01، ص37.

4- م س، ابن منظور، ج01، ص380.

5- م ن، ج01، ص382.

6- م س، ابن منظور، ج01، ص؛ معجم مقاييس اللّغة: ابن فارس، تح: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط01، س1399هـ/ 1979م، ج01، ص312.

7- رواه البخاري: ك: الدّعوات، ب: أفضل الاستغفار، ر: 6306، عن شدّاد بن أوس ﷺ، الجامع الصّحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تح: محبّ الدّين الخطيب، المكتبة السّلفية، القاهرة، مصر، ط01، س1400هـ، ج04، ص153.

8- م س: ابن منظور، ج01، ص381.

9- م ن، ج01، ص382.

وبإمعان النّظر في هذه المعاني للجذر (ب و أ) يُلْحظ أنّ المعنى الأوّل هو الأقرب لموضوع هذه الورقة البحثية، وهو أشهر المعاني وأكثرها تداولا، ومنه يؤخذ تعلُّق البيئة بالموضع الذي يحيط بالفرد أو المجتمع.

وما من شكّ في أنّ منزل المرء هو مقرّ راحته وسكنه، يأوي إليه حين يأخذه التّعب والإرهاق، وهو منسجم مع بيئته، فقد يكون في السّهول أو الجبال أو الجزُر أو البحار؛ وهو من جهة معدّ من الطّين والقصب والحديد وسائر مكوّنات الأرض، بل إنّ اتّخاذ المنازل ممّا لا يختصّ به الإنسان وحسب، وإنّما يشترك فيه مع سائر الكائنات الحيّة التي تشاركه العيش على هذه الأرض[2].

وفي المعاجم الفرنسية فاللّفظ Environnement الذي هو ترجمه للفظ البيئة يعدّ من المصطلحات الحديثة[3]، وهي تستخدم للدّلالة على الظّروف الطّبيعية والثّقافية والاجتماعية التي تؤثّر على الكائنات الحية والأنشطة الإنسانية[4]، كما تعني كافّة العناصر الطّبيعية والصّناعية التي تشكّل حياة الإنسان[5].

أمّا في المعاجم الإنجليزية: فإنّ مصطلح البيئة: "Environment" يعني كلّ الأشياء والظّروف المحيطة المؤثّرة على النّموّ وتطوّر الحياة، كما تستخدم للتّعبير عن حالة الهواء والماء والأرض والنّبات والحيوان والظّروف الطّبيعية المحيطة بالإنسان[6].

هذا ويخطئ البعض بالخلط بين مصطلح: "Environment" ومصطلح: "Ecology" الذي هو علم الأرض[7]، وهو أخصّ من سابقه، ويهدف إلى الحفاظ على البيئة، وإظهار مكانة الإنسان فيها، ودوره في الحفاظ عليها، وتبيان أماكن الخطر التي تهدد الحياة البيئية وآثارها السّلبية على حياة مختلف الكائنات الحيّة بما فيها الإنسان؛ ولهذا أصبح لهذا العلم دور ملحوظ في مختلف مشاريع التّنمية، وبات يشكل الأرضية التي تنطلق منها الدّراسات التّحضيرية لهذه المشاريع؛ لمعرفة الآثار التي تتركها هذه المشاريع على البيئة سواء في المدى القريب أو البعيد[8].

وممّا سبق يمكن استخلاص معنى البيئة في اللّغات الأجنبية بأنّه: مجموع العناصر والظّروف والمؤثّرات التي تؤثر في الكائنات الحيّة بما فيها الإنسان.

---

=

1- م ن: ج01، ص313.

2- رعاية البيئة من خلال التّقعيد الأصولي والفقهي: محمّد بن عبد العزيز المبارك، مجلّة الجمعية الفقهية السّعودية، الرّياض، م ع س، ع17، شوال- محرّم 1434-1435هـ/ 2013م، ص420.

3 Laetitia GRAMMATICO, Les moyens juridiques du développement énergétique dans le respect de l'environnement en droit français (Recherches sur le droit du développement durable), T.1, PUAM, 2003, P. 26 et s.

4 Le Petit Robert , 1 , paris , 1991, P, 664 .

5 Petit Larousse en couleurs , paris , 1980, p.345.

6 The world book Dictionary . V. I. 1988 , world Book Ink, U.S.A , P. 708 .

7- المنظور الإسلامي لقضايا البيئة – دراسة مقارنة –: محمّد محمود السّرياني، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرّياض، م ع س، ط01، س1427هـ/ 2006م، ص11، 12.

8- أحكام البيئة في الفقه الإسلامي: عبد الله عمر السّحيباني، دار ابن الجوزي، الرّياض، م ع س، د ط، س2008م، ص29.

هذا وتعرّف البيئة من النّاحية العلمية، بأنّها: الأحوال الفيزيائية والكيميائية والإحيائية للإقليم الذي يعيش فيه كائن حي؛ وتعني في علم الأحياء: كلّ العوامل والظّروف الخارجية التي تؤثّر في أيّ كائن حيّ أو مجتمع ما؛ وفي الجيولوجيا تعرّف بأنّها: كلّ الظّروف الفيزيقية والكيميائية والبيولوجية وكذا القوى والمؤثّرات الأرضية التي تؤدّي إلى ترسيب صخر ما في إقليم جغرافي معين؛ وفي علم الاجتماع تعني: الأحوال الاجتماعية والطّبيعية التي يعيشها الإنسان[1].

أمّا تعريف البيئة من النّاحية القانونية فهو يقوم على ضرورة تفهّم الحقائق من النّاحية العلمية واستيعابها تمهيدا لإدراجها في الأفكار القانونية؛ فالباحث عن تعريف محدّد للبيئة يدرك أنّ الفكر القانوني يعتمد بصفة أساسية على ما يقدّمه علماء البيولوجيا والطّبيعة للبيئة ومكوّناتها، ويظهر ذلك جليّا من اختلاف التّعاريف القانونية من دولة إلى أخرى؛ ومن نظر في تلك التّعريفات يجد أنّها تختلف باختلاف الأنظمة القانونية، لكنّها تتّفق في الإطار العام الحاكم للمفهوم[2].

وإذا ما أريد الوقوف على تعريف شرعي للبيئة، فإنّ آي الذّكر الحكيم التي تتضمّن مادّة (ب و أ) كفيلة ببلورة هذا التّعريف، وحسبنا منها قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ الأعراف: ٧٤، فقد حدّدت وبدقّة متناهية الأسس الثّلاثة التي يُعتمد عليها في صياغة التّعريف الشّرعي للبيئة، وهي:

- النّظر إلى من هيّأ هذه البيئة للإنسان وأكرمه وأنعم عليه بها، وهو الله تعالى (نسبة الفعل له سبحانه وتعالى: جَعَلَكُمۡ، وَبَوَّأَكُمۡ؛ ونسبة الإنعام إليه: ءَالَآءَ ٱللَّهِ.
- النّظر إلى من هيّئت له هذه البيئة وهو الإنسان، ذلك المخلوق المكرّم[3] (ضمير الخطاب الجمعي جَعَلَكُمۡ، وَبَوَّأَكُمۡ، تَتَّخِذُونَ، وَتَنۡحِتُونَ.
- النّظر للمكان المهيّإ للمخلوقات، وهو الأرض بما تتضمّنه من منافع أودعها الله تعالى فيها (تحديد المكان: : فِي ٱلۡأَرۡضِ ).

وعندئذ يمكن تعريف البيئة بأنّها: ما خلقه الله تعالى في الأرض من عناصر ومكوّنات وأحياء هيّأها الله تعالى لحياة الإنسان وقضاء حاجاته[4].

ووفقاً للمفاهيم السّابقة فإنّ البيئة تحتوي على عنصرين أساسين هما:

**العنصر الطّبيعي**: وهو من صنع الخالق سبحانه وتعالى بكلّ ما فيه من مواد مختلفة، يلزم المحافظة عليها لاستمرارية الحياة، مثل: الماء والهواء والنّباتات ونحو ذلك.

**العنصر البشري**: وهو من صنع الإنسان وحده، لما استغل موارد الطّبيعة في إقامتها، بغية تلبية حاجاته ومتطلّباته، ويجب أن تتلاءم مع اعتبارات حماية البيئة والتّنمية المستدامة.

---

1- ماهية البيئة: أسامة عبد العزيز، متاح على: knol.google.com/k/judge-dr-osama albdelaziz، تاريخ الزّيارة: 2019/01/16م، في السّاعة: 06:12.

2- آليات حماية البيئة في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي: عادل السّيّد محمّد علي، ص11، 12.

3- ذُكِرَ الإنسان في هذا النّص وغيره باعتباره رأس المخلوقات؛ لما اختصّه الله تعالى به من فضل وتكريم، وإلّا فالأرض مخلوقة له ولغيره من المخلوقات، سواء المكلّف منها كالجنّ، أو غير المكلّف كالحيوان والنّبات.

4- م س: محمّد بن عبد العزيز المبارك، ص422- 424.

## المبادئ العامّة الحاكمة لقضية النّظر إلى البيئة في الإسلام:

- **المبدأ الأوّل: إقرار الإسلام للمفهوم الشّامل للبيئة:** إذ يدخل في مسمّى البيئة جميع الكائنات في الكون الطّبيعي والكون البشري؛ فالبيئة في المنظور الإسلامي هي الإنسان المكرّم، والحيوان الأعجم، والجماد الأصم، والنّبات الأخضر، والسّماوات ذات الأبراج، والأرض ذات الفجاج، والبحار ذات الأمواج، والجبال المرساة، والأنهار المجراة، هي الماء العذب، والملح الأجاج، والهواء الطّلق، والرّياح التي تثير السّحاب، وترسل بشرا بين يدي رحمة الله تعالى.
- المبدأ الثّاني: تأسيس مفهوم البيئة وإقامته على أساس وحدة المنشإ: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ الأنعام: ٩٨، ووحدة الكون، ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الأنبياء: ٣٠، ووحدة التّلقّي من الله تعالى.
- **المبدأ الثّالث: قيام مفهوم البيئة على حفظ التّوازن البيئي في النّوع والسّلالة:** فالله تعالى حين أمر نوحا أن يُعدّ الفلك، أمره أن يأخذ من كلّ زوجين اثنين، حفظا لهذا النّوع ولهذه السّلالات من أن تنقرض وأن تتبدّد، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ الأنعام: ٣٨، وقال ﷺ: **(لولا أنّ الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها كلّها)**[1]؛ وعليه فحفظ جميع الأجناس والسّلالات من الانقراض أمر بالغ الأهمّية، أراده الله تعالى لتحقيق وظيفتين:

**الأولى: تحقّق العبودية لله تعالى:** ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ الإسراء: ٤٤.

**الثّانية: التّسخير لخدمة الإنسان:** ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الجاثية: ١٣.

- **المبدأ الرّابع: اعتبار البيئة تراثا مشتركا للإنسانية:** وبذلك تكون العناية بالبيئة مسؤولية مشتركة تضامنية بين جميع مكوّنات المجتمع أهليه ورسميه ومنظماته، وجمعياته، ونقاباته، ورجاله، ونسائه، وشبابه، انطلاقا من مبدإ التّكافل، ومن مبدإ أنّ عالم المسخّرات ينبغي أن يتظافر عليه الجميع ويتآزر لتحقيق المقصود من هذه المسخّرات في الانتفاع بها كلّ البشر.
- **المبدأ الخامس: البيئة مظهر من مظاهر الجمال الإلهي في الكون:** فالبيئة مسرح لتجلّي جمال الصّنعة الإلهية والإبداع الرّبّاني: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ النحل: ٥ – ٨، وبذلك ينتقل الإنسان من

---

1- رواه أبو داود، ك: الصّيد، ب: في اتّخاذ الكلب للصّيد وغيره، ر: 2845، عن عبد الله بن مغفّل ﷺ، السّنن، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرّياض، م ع س، ط01، س1417هـ، ص505؛ ورواه التّرمذي، أبواب الأحكام والفوائد، ب: ما جاء في قتل الكلاب، ر: 1486، عن عبد الله بن مغفّل ﷺ، الجامع الكبير، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط01، س1996م، ج03، ص152.

جمال الصّنعة إلى جمال وجلال الصّانع.

- **المبدأ السّادس: للبيئة رحم مع الإنسان**: إذ الإنسان مُستجلِب للمعرفة التي بسطها الله تعالى في الكون المنظور: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فصلت: ٥٣؛ ثمّ هي موضع التّسخير للإنسان: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم: ٣٢ - ٣٤، كما يجمع بينهما رحم التّسبيح، مصداق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ سبأ: ١٠، أي رجّعي تسبيح ليكون منسجما مع تسبيح داوود عليه السلام، ويربط بينها وبين الإنسان رباط محبّة عبّر عنها حديث أنس بن مالك ﷺ قال خرجت مع النّبي ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلمّا قدِم النبي ﷺ راجعا وبدا له أُحُد، قال: (**هذا جبل يحبّنا ونحبّه**)[1]، وصلة الرّحم واجب شرعي.

- **المبدأ السّابع: البيئة ثمرة تفاعل بين عنصرين أساسيين**: الأوّل: الإنسان المستخلف، والثّاني: الكون المسخّر؛ والإنسان سيّد في هذا الكون لا سيِّدَه، لأنّ مالك الكون وحاكم أمره هو الله تعالى، وعلى الإنسان أن يسير فيه على النّحو الذي يريده المالك الحقّ.

- **المبدأ الثّامن: ضرورة الاستخدام الأمثل لموارد البيئة**: فلا بدّ من إحسان التّوظيف لمواردها، ومنع أي إهدار لهذه الموارد، ولذلك يأمر الإسلام بالتوسّط والاعتدال فيقول ﷺ: (...**والقصد القصد تبلغوا**)[2]، وينهى عن الإسراف والتّبذير، إذ قال ﷺ: لما مرّ بسعد بن أبي وقاص ﷺ، وهو يتوضأ: ((**ما هذا السّرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار**)[3]، ويقول حبر الأمّة ابن عبّاس ﷺ: (**كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة**)[4].

## القاعدة الأخلاقية أسّ وسائل حماية البيئة:

ما أكثر مشكلات العالم! وما أكثر مصائبه المتنوّعة والمتوزّعة على كلّ المجالات! فليس على الأرض الفسيحة من مكان إلّا وتتناوله المشكلات، إنْ لم نقل تتسابق إليه، ولم يَعُد الإنسان بمنأى عن مشكلات العالم وآثارها، ولو عاش في كهف بعيد، أو فوق قمّة جبل منعزل، أو في قلب جزيرة تحاصرها المياه؛ ومن أخطر مشكلات العالم في عصرنا

1- رواه البخاري: ك: الجهاد والسّير، ب: فضل الخدمة في الغزو، ر: 2889، عن أنس بن مالك ﷺ، م س، ج02، ص328.

2- رواه البخاري، ك: الرّقاق، ب: القصد والمداومة على العمل، ر: 6463، عن أبي هريرة ﷺ، م س، ج04، ص184.

3- رواه ابن ماجه: ك: الطهارة، ب: ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التّعدّي فيه، ر: 425، عن ابن عمرﷺ، السّنن، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرّياض، م ع س، ط01، س1417هـ، ص90.

4- رواه البخاري، ك: اللّباس، ب: قول اللّه تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ)، م س، ج03، ص53.

الحاضر مشكلة البيئة؛ فقد أصبحت المشكلة البيئية منذ زمن واقعًا خطيرًا أصاب الحياة الإنسانية بأضرار بالغة، فأنواع التّلوّث قد أصابت الموارد الأساسية الطّبيعة على الأرض، فثمّت تلوث الهواء، وتلوّث الماء، وتلوّث التربة، وتلوّث الغذاء، وكلّ هذه الأنواع من التّلوّث انعكست على حياة الإنسان بالضّرر، فنتجت كوارث مروّعة، ذهب ضحيتها الآلاف من البشر والكائنات الحيّة؛ كما نتجت أنواع جديدة من الأمراض، وسلالات جديدة من الفيروسات، وكلّها تهدّد الحياة الإنسانية والحيوانية، وتصنع اختلالاً بالغًا في البيئة التي خلقها الله سبحانه وتعالى بقدر؛ ولعلّ خير شاهد على ما بلغته البيئة من أخطار تهدّد الحضارة الإنسانية وحقّ الإنسان في الحياة، تلك الرّسالة الموجّهة باسم 2200 من مشاهير العلماء في مجال الحياة والطبيعة، أربعة منهم حاملي جائزة نوبل، وممّا جاء فيها: (لم تجابه البشرية خطرا حتّى الآن، بهذه الضّخامة وهذا الانتشار، ناتج عن عدّة عوامل، كلّ منها أصبح كافيا لوجود معضلا مستعصية الحلّ، وتعني مجتمعة، أنّ آلام البشرية سوف تزداد إلى حدّ مخيف في المستقبل القريب، وأنّ كلّ حياة سوف تنطفئ أو هي مهدّدة بخطر التّلاشي)[1].

على أنّ هذه المشكلات البيئية لا تتوقّف عند حدود الجيل الحالي من البشر؛ بل إنّها تهدّد كذلك حياة الأجيال القادمة، التي ستعاني أيضًا من العديد من الأمراض والمشكلات الصّحّية والكوارث البيئية، وهذا ما يؤكّده تقرير اللّجنة المعنية بالبيئة والتّنمية، المعنون بـ: "مستقبلنا المشترك"، حيث جاء فيه: (بأنّ الضّغوط التي يخضع لها هذا الكوكب لم يسبق لها مثيل، وهي تتعاظم بمعدّلات لا تعرفها التّجربة الإنسانية من قبل)[2]، فالنّفايات النّووية – مثلاً – تحتوي على عناصر يمكنها البقاء دون تحلّل لمئات وآلاف السّنين، ولو عزلت في أعماق المحيطات وتحت طبقات من الإسمنت والرّصاص، فإنّ هذه الطّبقات لن تصمد تحت الضّغط وملوحة المياه لمئات وآلاف السّنين، وفي لحظة ما ستتسرب هذه النّفايات إلى البيئة، وتؤتي أثرها الفتّاك؛ والله تعالى يقول وقوله الحقّ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ البقرة: ١٩٥؛ والماء العذب يعاني من التلوّث، فترمى فيه نفايات المصانع وسمومها، ويعكّر النّاسُ صفوه بما يرمونه فيه من أوساخهم، ولا يستفيدون منه بالشّكل الصّحيح؛ وقد نهى ﷺ عن التبوّل في الماء الرّاكد فقال: (**لا يبولنّ أحدكم في الماء الدّائم ثمّ يتوضأ منه**)[3]، حرصا على تنقية موارد المياه، فالماء قوام الحياة كلّها، مصداق قول الباري جلّ جلاله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنبياء: ٣٠؛ والأرض الخصيبة تعاني من عدم استثمارها بالشكل العلمي المناسب، وتستهلك بشكل متسارع تحت وقع التّوسّع في البناء، وتزرع فيها البذور المسرطنة، وتسقى محاصيلها بالمياه القذرة، وتسمّد تربتها بمواد كيماوية تهلك الحرث والنّسل دونما وعي أو استشعار لرقابة الواحد الأحد جلّ في عليائه، والرّسول الأعظم ﷺ يقول: (**لا ضرر ولا ضرار**)[4]، ويقول: (**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**)[5]؛ وما زال العالم يخطو بطيئًا في استثمار الطّاقات الطّبيعية النّظيفة كطاقة الشّمس وطاقة الرّياح، ويعتمد على أنواع الطّاقة التي ثبت تأثيرها الضّارّ على البيئة؛ والتّلوث في الشّوارع والطّرقات فحدّث ولا حرج، فبينما يكون البعض مستقلاّ السّيّارة، فإذا به بعد تناول الطّعام أو الشّراب يلقي

---

1–أخطار البيئة والنّظام الدّولي: عامر محمود طراف، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، د ط، س1998م، ص77.

2– تقرير اللّجنة المعنية بالبيئة والتّنمية بعنوان: "مستقبلنا المشترك"، الوثيقة A/42/4427، p19.

3– رواه التّرمذي، أبواب الطهارة عن رسول الله ﷺ، ب: كراهية البول في الماء الراكد، ر: 68، عن أبي هريرة ﷺ، م س، ج01، ص110.

4– رواه ابن ماجه، ك: الأحكام، ب: من بنى في حقّه ما يضرّ بجاره، ر: 2340، عن عبادة بن الصّامت ﷺ، م س، ص400.

5– رواه البخاري، ك: الإيمان، ب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ر: 10، عن عبد الله بن عمرو ﷺ، م س، ج01، ص20.

ببقايا ذلك من زجاج السّيّارة على الأرض التي يسير عليها النّاس، كما نجد على قارعة الطّريق أكياسا من الطّعام في القمامة، ونجد مخلّفات البناء والرّديم تقطع الطّريق، ونجد في الأماكن التي يمرّ منها النّاس أو يلعب فيه الأطفال كثيرا من الحفّاظات – أعزّ الله مقامك أيّها القارئ الكريم –، وشفرات الحلاقة، والقطن المنظّف للأذنين، وقطع الزّجاج المكسّر، وبقايا السّجائر، والقارورات بكلّ أنواعها وأحجامها، والأكياس البلاستيكية، ... إلخ ممّا يلحق الأذى بالنّاس والبيئة، مع أنّنا مأمورون بإماطة الأذى عن الطّريق، في قول المصطفى ﷺ: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**)[1]، ومتوعّدون بقوله ﷺ: ((**من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم**))[2]، ويدخل في هذا من يسير في الاتّجاه المعاكس، ومن يركن سيّارته في المكان الممنوع، ومن يعرقل حركة المرور يوم زفافه، ...، كلّ ذلك جنته يد الإنسان، مصداق قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم: ٤١.

إنّ الإسلام وهو الدّين الرّبّاني الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى للعالمين، والدّين الذي امتاز بشموله وبقدرته على تنظيم حياة البشر على هذه الأرض، والدّين الذي يتناول كلّ الحياة البشرية في واقع المسلم، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣، وهو الدّين الكامل الذي ختم الله به الرّسالات، وختم برسوله ﷺ الرسل، وأنزل فيه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة: ٣، لم يقف متفرّجًا على هذه المشكلات؛ فلقد حفلت نصوصه بإسهامات ووصايا وتعاليم في السّياسة والاقتصاد والاجتماع والبيئة،... لم يغفل صغيرة ولا كبيرة من حياة الإنسان على هذه البسيطة، مصداقا لقوله عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨، كما كانت حياة نبيه ﷺ تطبيقًا لهذا الشّمول ولهذا الكمال.

نعم لقد أولى الإسلام عناية فائقة لمسألة الأمن البيئي قبل أن يبدو للبشر أنّ البيئة قد تكون ذات يوم ملآى بالمشكلات الجسام، بحيث لا يكاد توجيهٌ من التّوجيهات في التّشريع الإسلامي الحنيف إلّا ويلامس موضوع البيئة بوجه أو بآخر، إثباتا لربّانية هذا الدّين، وفي هذه الورقة البحثية سنذكر بعض التّلميحات والإلماعات حول القيم الأخلاقية باعتبارها أهمّ القواعد التي تُسهم بحظّ وافر في حماية البيئة، وذلك من باب: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات: ٥٥، لأنّ أمّة كأمّة الإسلام لا تحتاج في الأصل إلى من يبرهن لها عن ضرورة التّمسّك بالخُلق القويم، ولا إلى من يبرهن لها عن أهمّية الحيوية الرّوحية؛ لكنّ تهمّش الأنشطة الرّوحية، والضّغوط الرّهيبة التي تتعرّض لها القيم الأخلاقية، والصّعوبات الحياتية التي تواجه النّاس، تجعل من لفت الأنظار إلى مركزية الأخلاق في أيّ انطلاقة أو حركة أو تنمية أمرا بالغ الأهمّية، ولا سيما في مسألة العناية بالبيئة، ولا أدلّ على ذلك من أنّ طابع الرّقي الحقيقي هم طابع قيمي أخلاقي، أكثر من أن

---

1- رواه مسلم، ك: الإيمان، ب: بيان عدد شعب الإيمان، ر: 35، عن أبي هريرة ﷺ، المسند الصّحيح المختصر من السّنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تح: أبو قتيبة نظر محمّد الفاريابي، دار طيبة، الرّياض، م ع س، ط01، س1427هـ/ 2006م، ص38.

2- رواه الطبراني، ر: 3050، عن حذيفة بن أسيد ﷺ، وإسناده صحيح، المعجم الكبير، تح: حمد عبد المجيد السّلفي، دار ابن تيمية، القاهرة، مصر، ط02، س1397هـ، ج03، ص200.

يكون طابعا عمرانيا تنظيميا، وما الجاذبية التي تتمتّع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام بشهادة العدوّ قبل الصّديق – إلّا من نبع تلك القيم بشكل أساسي، وأنّ إهمال القيم الأخلاقية لا يفضي إلّا إلى الهمجية والانحراف، وليس بإمكان أفضل النّظم الاجتماعية ولا بإمكان أقسى العقوبات الصّارمة أن تحُول دون اعوجاج الإنسان وتجاوزه للنّظام القانوني، ولا أن تملأ الفراغ النّاشئ من ذبول الرّوح وانحطاط القيم.

**والقيم في لغة العرب:** جمع قيمة، وهي مصدر للفعل الثّلاثي (قوم)، وتأتي بدلالات مختلفة: فيقال: تقاوموه بينهم أي قدّروا ثمنه الذي يعادل تكلفته، وبكم قامت فرسك؟ أي كم بلغ ثمنها؟[1]؛ وتقول: انقاد الشّيء إذا استقام واعتدل، وقوّمتُه أي عدّلته فهو قويم ومستقيم[2]؛ ويقولون: ماله قيمة إذا لم يكن له ثبات ودوام على الأمر[3]، والإقامة في المكان أي الثّبات والاستقرار فيه[4]؛ وقوام الأمر أي عماده ومستنده وملاكه[5]؛ وفي قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ التين: ٤، إشارة إلى ما خُصّ به الإنسان من بين سائر المخلوقات من عقل وفهم وانتصاب القامة

ومن جُماع ما تقدّم يمكن الخلوص إلى أنّ مادّة (قوم) قد استعملت في لغة العرب للدّلالة على المعاني التّالية: قدر الشّيء وثمنه، الاستقامة والاعتدال، الثّبات والدّوام والاستمرار، نظام الأمر وعماده وملاكه، توفية الشّيء حقّه؛ وأقرب هذه المعاني إلى موضوع البحث هو الاستقامة والاعتدال، مع الثّبات والدّوام والاستمرار.

**أمّا اصطلاحا:** فقد تعدّدت التّعريفات الموضّحة لدلالة لفظ القيم، ومن أهمّ هذه التّعريفات: قول بعضهم بأنّها: مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدّد على أساسه المرغوب فيه وغير المرغوب فيه[6]؛ وقول آخرين بأنّها: صفات أو مُثُل أو قواعد تقام عليها حياة البريّة، فتكون بها حياة إنسانية، وتُعايَر بها النُّظم والأفعال لتعرف قيمتها الإنسانية من خلال ما تتمثّله منها[7]؛ وقول غيرهم بأنّها: حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشّرع محدّدا المرغوب فيه والمرغوب عنه من السّلوك[8].

هذا ويستفاد من هذه التّعريفات أنّ القيم تتميّز بكونها: ميزانا تريصا توزن به أعمال البشر لتحديد المرغوب فيه والمرغوب عنه، وتستمد مادّتها من الشّرع القويم، وبها يتحدّد قدر كلّ شيء ومكانته مادّيا كان أو معنويا، ثمّ هي محدّدات لفكر الأفراد وسلوكاتهم.

وبناء على ما سبق فإنّ التّعريف الذي نختاره للقيم، هو: مجموعة المعايير والمبادئ الرّبّانية التي يؤمن بها الفرد فينتج عنها سلوك راق منضبط بقواعد الشّرع.

---

1- م س: ابن منظور، ج05، ص3783.

2- م ن، ج05، ص3782؛ القاموس المحيط: الفيروزآبادي، الهيئة العامّة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، ط مصورة عن الطّبعة الثّالثة للمطبعة الأميرية 1302م، س1400هـ/ 1980م، ج04، ص165.

3- م ن، ج04، ص165، 166.

4- م س: ابن منظور، ج05، ص3781.

5- م س: الفيروزآبادي، ج04، ص166.

6- موسوعة نضرة النّعيم في أخلاق الرّسول الكريم ﷺ: مجموعة من الباحثين ، دار الوسيلة، جدّة، م ع س، ط01، س1418هـ/ 1998م، ج01، ص78.

7- السّلفية وقضايا العصر: عبد الرّحمن بن زيد الزّنيدي، مركز الدّراسات والإعلام، دار إشبيليا، الرّياض، م ع س، ط01، س1418هـ/ 1998م، ص462.

8- علم النّفس الاجتماعي: حامد زهران، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط01، س1977م، ص132.

أمّا الأخلاق فمفردها الخُلُق، ويدور معناه حول ما أتى على الطّبيعة والسّجية، ويأتي بسكون اللّام وضمّها والمعنى واحد، قال ابن منظور: (الخُلُق والخُلْق: السّجية... إلى أن قال: وحقيقته أنّه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصّة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظّاهرة وأوصافها ومعانيها)[1].

وعن الدّلالة الاصطلاحية للخُلق فقد قال الجرجاني: (عبارة عن هيئة للنّفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإنْ كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة، سمّيت الهيئة: خُلقًا حسنًا، وإن كان الصّادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خُلقًا سيّئًا، وإنّما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأنّ من يصدر منه بذل المال على النّذور بحالة عارضة لا يقال: خلقه السّخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلّف السّكوت عند الغضب بجهد أو رويّة لا يقال: خُلُقه الحِلم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فربّ شخصٍ خُلقه السّخاء، ولا يبذل، إمّا لفقد المال أو لمانع، وربّما يكون خُلقه البخل وهو يبذل، لباعث أو رياء)[2].

وعليه فالأخلاق تتميّز بالثّبات والرّسوخ على وجه عفوي تلقائي ليس فيه تصنّع أو تكلّف، فالأخلاق معان في النّفس تظهر آثارها في الأفعال، وهي مقصد شرعي يراد به: المعاني المتعلّقة بالمكارم التي راعتها الشّريعة في روحها وأحكامها، كالسّماحة والرّحمة والتّيسير والأخوّة والعدالة والمساواة والتّزكية ومحاسن العادات، ونحو ذلك، وهي ما تعرف بمسمّى المقاصد التّحسينية، حتّى حصرها الفخر الرّازي فيها بقوله: (...التّحسينات، وهي تقرير النّاس على مكارم الأخلاق ومحاسن الشّيم)[3]، وقال الشّاطبي بمثل ذلك مع التّوسيع في نطاقها ليشمل كلّ ما رآه النّاس حسنا في عاداتهم، فقال: (هي الأخذ بمحاسن العادات وتجنّب الأحوال المدنّسات التي تأنفها العقول الرّاجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق، وهي جارية فيما جرت فيه الأوليان)[4]؛ ثمّ جاء الطّاهر بن عاشور فعرّفها بتعريف جعلها تشمل جميع مناحي الحياة الاجتماعية والثّقافية والاقتصادية والسّياسية، لا العبادات والأخلاق فقط، وأعطاها أبعادا أخرى لم تركّز عليها التّعاريف عند غيره، فعلى المستوى الدّاخلي جعلها أساسا حاميا لنظام الأمّة، وعلى المستوى الخارجي في علاقتها مع المخالفين فإنّها تجعل الأمّة محلّ رغبة ورهبة في آن واحد[5]؛ وقد أفرد لذلك كتابا سمّاه "أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام"، فقال: (والمصالح التّحسينية هي عندي ما كان بها كمال حال الأمّة في نظامها حتّى تعيش آمنة مطمئنة، ولها بهجة منظر المجتمع في مرأى بقيّة الأمم، حتّى تكون الأمّة الإسلامية مرغوبا في الاندماج فيها أو في التّقرّب منها، فإنّ لمحاسن العادات مدخلا في ذلك، سواء كانت عادات عامّة كستر العورة، أم خاصّة ببعض الأمم كخصال الفطرة وإعفاء اللّحية، والحاصل أنّها ممّا تراعى فيها المدارك الرّاقية البشرية)[6].

---

1- م س: ابن منظور، ج02، ص1245.

2- كتاب التعريفات: الجرجاني ، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط ج، س1985م، ص106.

3- المحصول في علم أصول الفقه: فخر الدّين الرّازي، تح: طه جابر فيّاض العلواني، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط03، س1418 هـ/ 1997م، ج05، ص161.

4- الموافقات في أصول الشّريعة: الشّاطبي، تح: عبد الله دراز، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط01، س1425هـ/ 2004م، ص223.

5- المقاصد التحسينية عند الأصوليين ضوابطها وأثرها الفقهي: ليلى شادة، رسالة ماجستير، إشراف: عبد القادر بن حرز الله، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، س1435هـ/2014م، ص54، 55.

6- مقاصد الشّريعة الإسلامية: محمّد الطّاهر بن عاشور، تح: محمّد الطّاهر الميساوي، دار النّفائس، عمّان، الأردن، ط02، س1421هـ/ 2001م، ص307، 308.

والقيم الأخلاقية الحامية للنّظام البيئي والضّامنة لتنمية مستدامة هي: مجموعة المعايير والمبادئ الرّبّانية التي يؤمن بها الفرد فينتج عنها سلوك راق منضبط بقواعد الشّرع في التّعامل مع الموارد البيئية من أجل المحافظة عليها واستدامتها، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف: ٧، كالشّكر والاعتدال والإحسان ونحو ذلك.

## منظومة الأخلاق البيئية في نصوص الوحي بشقيه:

على الرّغم ممّا تصدره الدّول والحكومات من القوانين واللّوائح والتّنظيمات قصد حماية البيئة والحدّ من التّحدّيات التي تطالها، إلّا أنّها لا تزال تعاني العجز والقصور تجاه المشكلات البيئية، فهي في أمسّ الحاجة إلى توفّر الحسّ بالمسؤولية لدى الإنسان، ولا يتأتّى توفّر هذا الإحساس إلّا بوجود منظومة قيمية للأخلاق البيئية، ولا أدلّ على ذلك من أنّ جلّ المخاطر التي تتعرّض لها البيئة إنّما هي نتيجة حتمية لضعف الوازع الأخلاقي عند الإنسان، ذلك أنّه كلّما هُمّشت هذه القيم، وحلّ محلّها غيرها كالقيم النّفعية والأنانية والجشع والطّمع والإسراف والتّبذير والظلم والعنف... كلّما ازدادت المخاطر التي تتهدّد البيئة وتفتك بها وبوتيرة متسارعة جدّا.

والتّشريع الإسلامي لم يُغفل هذا الجانب، بل اعتنى به أيّما عناية، ولا أدلّ على ذلك من أنّ النّبي ﷺ قال ملخّصا الغاية من بعثته: ((**إنّما بُعِثت لأتمّم حسن الأخلاق**))[1]، ومن أهمّ القيم الأخلاقية التي من شأنها بعث روح المسؤولية في الإنسان تجاه البيئة لحمايتها، وحسن الاستفادة منها، مع ترشيد استغلال مواردها لتحقيق تنمية مستدامة:

- **الشّكر**: وهو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع؛ فيكون ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه: شهودا ومحبّة، وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة[2]، وهذا يدل على أنّ للشّكر ثلاثة أركان، هي:

أوّلها: الاعتراف بالنّعمة بالقلب: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مطر النّاس على عهد النّبي ﷺ، فقال: ((أصبح من النّاس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا))[3]، وثانيها: التّحدث بها والثّناء على المنعم: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى: ١١، وثالثها: تسخيرها في طاعة مسديها والمنعم بها: قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ سبأ: ١٣، ولذا قال الشّاعر:

أَفَادَتْكُمُ النّعْمَاء منّي ثَلَاثَةً ... يدِي ولَسَانِي وَالضّمير المحَجَّبَا

وهو ممّا أمر الله تعالى به عباده فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة: ١٥٢، وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ لقمان: ١٤، وقد جعل الله تعالى الحفاظ على البيئة لونا من ألوان شكره سبحانه على ما أنعم به على عباده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

1- رواه مالك، ك: الجامع، ب: ما جاء في حسن الخلق، ر: 2633، وهو من بلاغات مالك، وأوصله ابن عبد البرّ المالكي إلى أبي هريرة ﷺ، الموطأ، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط02، س1417هـ/ 1997م، ج02، ص490.

2- مدارج السّالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيّم، تح: محمّد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط07، س1423هـ/ 2003م، ج02، ص237.

3- رواه مسلم: ك: الإيمان، ب: بيان كفر من قال مطرنا بالنّوء، ر: 127، م س، ص50.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ البقرة: ١٧٢، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾ يس: ٣٣ - ٣٥، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يس: ٧١ - ٧٣، وثبت عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**يقول الله عزّ وجل يوم القيامة: يا ابن آدم حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النّساء، وجعلتك تَرْبَعُ وترأس**[1]**، فأين شكر ذلك؟**))[2]، وثبت عنه أيضا أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**بينا رجل يمشى فاشتدّ عليه العطش، فنزل بئرا، فشرب منها، ثمّ خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثمّ أمسكه بفيه، ثمّ رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له؛ قالوا: يا رسول الله، وإنّ لنا في البهائم أجرا؟ قال: في كلّ كبد رطبة أجر**))[3]؛ وفي رواية: ((**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطّريق، فأخّره فشكر الله له، فغفر له**))[4].

- **الاعتدال**: وهو القصد في السّلوك والتّوازن في الفكر والتّوسّط في الأمور بين طرفي الإفراط والتّفريط، وتلك صفة هذه الأمّة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة: ١٤٣، ائتساء بنبيّها ﷺ القائل عن نفسه: ((**أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنّي أصوم وأفطر وأصلّي وأرقد وأتزوّج النّساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي**))[5].

والله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون بحساب وقدر، مصداق قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان: ٢، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ الرحمن: ١ - ٩، وطلب من الإنسان تمثُّل الاعتدال في تعامله مع هذه البيئة وعناصرها؛ والقصد من ذلك ترشيد استهلاك الموارد والثّروات الطّبيعية، فهو وسيلة علمية لحماية البيئة والمحافظة عليها، وإحدى الآليات الأساسية لتحقيق التّنمية المستدامة؛ لأنّ المحافظة على التّنوّع الحيوي يوفّر القاعدة الأساسية للحياة على الأرض، ويعين على بقاء الحياة الفطرية التي تعدّ المصدر الرّئيس لتزويد الإنسان بالغذاء والموادّ الخام اللازمة لصناعة ملابسه، وتتيح له المجال لممارسة هواياته في الصّيد أو

---

1- تربع: تأخذ ربع غنيمة القوم، وترأس: تكون رئيسا للقوم.

2- رواه أحمد، مسند أبي هريرة ﷺ، ر: 10378، المسند، تح: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط01، س1418هـ/ 1997، ج16، ص244، 245.

3- رواه البخاري، ك: الشّرب والمساقاة، ب: فضل سقي الماء، ر: 2363، عن أبي هريرة ﷺ، م س، ج02، ص165.

4- رواه البخاري، ك: الأذان، ب: فضل التّهجير إلى الظهر، ر: 652، عن أبي هريرة ﷺ، م س، ج01، ص217؛ وك: المظالم والغصب: ب: من أخذ الغصن وما يؤذي النّاس في الطّريق فرمى به، ر: 2472، م س، ج02، ص200.

5- رواه البخاري، ك: النّكاح، ب: ترغيب في النّكاح، ر:5063، عن أنس بن مالك ﷺ، م س، ج03، ص354.

التّرويح عن النفس... كما أن كثيرا من الأنواع الحية ذات دور أساسي في استقرار المناخ، وحماية موارد المياه والتربة، وتوفّر مخزونا للمعلومات عن السّمات الوراثية التي ترشد إلى اختيار محاصيل جديدة وتساعد على تحسين الأنواع الموجودة حاليا.

لهذا اهتمّت الشّريعة الإسلامية بهذه القضية فحثّت الأفراد على الاعتدال في شؤون الحياة كافّة، فلا إفراط ولا تفريط، ولا إسراف ولا تقتير، وعدّت ذلك من صفات المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ الفرقان: ٦٧؛ وحاربت كلّ عمل يفسد البيئة ويتلف عناصرها، أيا كان دافع الإتلاف، واعتبرت ذلك عملا محرّما يعاقب الله تعالى عليه، ومنكرا يجب تغييره باليد أو باللّسان أو بالقلب وذلك أضعف الإيمان[1]، فمنعت الإتلاف بدافع القسوة، كما في حديث المرأة التي حبست الهرّة حتّى ماتت جوعا، فاستحقّت النّار لقسوة قلبها وخلوّه من الرّحمة، أو بدافع الغضب – الذي غالبا ما يؤدّي بصاحبه إلى سلوكات غير شرعية –، لا سيما إذا تعلّق الأمر بإبادة عنصر من عناصر البيئة، فقد أوصى النّبي ﷺ بعدم الغضب وضرورة الاتّصاف بالحلم والصّبر، فقال لمن استوصاه: ((**لا تغضب، فردّد مرارا، قال لا تغضب**))[2]، أو بدافع العبث الذي لا هدف له، ولا يحقّق منفعة معتبرة، إذ توعّد النبي عليه الصّلاة والسّلام فاعله باللّعن، أو بلا ضرورة ملجئة ولا حاجة معتبرة تدفع إليه، إنما هو الجهل والظلم والإفساد في الأرض[3]، فقال ﷺ: ((**من قطع سدرة صوب الله رأسه في النّار**))[4]، أو بسبب الإهمال، لأنّه يؤدي إلى أخطار جمة كموت الحيوان، أو هلاك الزرع، وتعفّن الأطعمة، وصدإ الآلات، وهدر الطاقة ونحو ذلك؛ وألطف من هذا كلّه عدم تجويز الشّريعة لإتلاف وإفساد عناصر البيئة حال الحرب التي يخرج فيها الناس عن المعتاد، فقد جاء في وصايا أبي بكر ﷺ لقوّاده في الحرب، فقد قال يحي بن سعيد: حدثت أن أبا بكر ﷺ بعث جيوشا إلى الشام، فخرج يشيّع يزيد بن أبي سفيان، فقال: (إنّي أوصيك بعشر لا تقتل صبيا، ولا امرأة، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعنّ شجرا مثمرا، ولا تخربنّ عامرا، ولا تعقرنّ شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تغرقنّ نخلا ولا تحرقنه، ولا تغلل ولا تجبن)[5].

- **الإحسان**: وهو تحرّي الكمال والإتقان فيما يؤدّيه الإنسان من أعمال استشعارا لرقابة الله تعالى، وبه أمر المولى تبارك وتعالى عباده فقال: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ البقرة: ١٩٥، وهو ثلاثة أنواع:

الأوّل: الإحسان مع الله: وعن معناه سئل عليه الصّلاة والسّلام فقال: ((أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك))[6].

**الثّاني**: **الإحسان مع النّاس**: وهو الإشفاق عليهم والحنان تجاههم والإكرام لهم، مصداق قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ البقرة: ٨٣، وقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ

1- رعاية البيئة في شريعة الإسلام: يوسف القرضاوي، دار الشّروق، القاهرة، مصر، ط02، س1427هـ/2006م، ص143، 144.

2- رواه البخاري، ك: الأدب، ب: الحذر من الغضب، ر: 6116، عن أبي هريرة ﷺ، م س، ج04، ص112.

3- م س: يوسف القرضاوي، ص146.

4- رواه أبو داود، ك: الأدب، ب: في قطع السدر، ر: 5239، عن عبد الله بن حُبْشِيٍّ ﷺ، م س، ص947.

5- رواه مالك ك: الجهاد، ب: النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، ر: 1292، م س، ج01، ص577.

6- رواه البخاري، ك: الإيمان، ب: سؤال جبريل النّبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم السّاعة، ر: 50، عن أبي هريرة ﷺ، م س، ج01، ص33

وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ النساء: ٣٦.

**الثّالث: إتقان العمل وإحكام الصّنعة:** فالإسلام يربي الفرد على التّعامل مع كلّ ما حوله بإحسان كما في الحديث الصّحيح أنّ النبي ﷺ قال: ((**إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء**))[1].

وهذه المعاني كلّها مطلوبة في التّعامل مع البيئة، فيجب على الإنسان أن يعاملها بإحكام وإتقان لا بإهمال وغفلة وإضاعة، كما يجب أن تعامل بكلّ شفقة وحنان؛ ويشمل هذا الإحسان كلّ عناصر البيئة، فعن معاوية بن قرّة قال: كنت مع معقل المزني، فأماط أذى عن الطّريق، فرأيت شيئا فبادرته، فقال: ما حملك على ما صنعت يا ابن أخي؟ قال رأيتك تصنع شيئا فصنعته، فقال: أحسنت يا ابن أخي! سمعت النّبي ﷺ يقول: ((**من أماط أذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة، ومن تقبّلت له حسنة دخل الجنة**))[2]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا — أو دجاجة — يترامونها، فلما رأوا ابن عمر تفرّقوا: فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إنّ رسول الله ﷺ لعن من اتّخذ شيئا فيه الرّوح غرضا))[3]، وعن أبي هريرة ﷺ أنّ الرّسول ﷺ قال: ((**عذّبت امرأة في هرّة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النّار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولاهي تركتها تأكل من خشاش الأرض**))[4]، كما أنبأت بجزيل المثوبة عند الله لمن أحسن إلى هذه المخلوقات كما في حديث الرّجل الذي سقى الكلب[5].

- **الطّهارة:** فقد حثّت الشّريعة الإسلامية المؤمن على أن يكون نظيفاً طاهراً، وأن يهتم بنظافة محيطه مسكناً كان أو شارعاً، وربطت ذلك كلّه بالأجر العظيم عند الله سبحانه وتعالى، إذ: ((**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**))[6]، ويقول ﷺ: ((**إنّه خُلِق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجرا عن طريق الناس، أو شوكة، أو عظما عن طريق الناس، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد تلك السّتّين والثّلاثمائة السُّلامَى؛ فإنّه يمشى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النّار**))[7]، ويقول: ((**البصاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها**))[8]، ويقول: ((**السّواك مطهرة للفم مرضاة للرّبّ**))[9]، ودعا ﷺ إلى المحافظة على مصادر المياه من التّلوّث، فقال: ((**لا يبولن أحدكم في الماء الدّائم الذي لا يجري، ثمّ يغتسل فيه**))[10]، وأمر بالمحافظة على مياه الشّرب

---

1- رواه مسلم ك: الصّيد والذبائح، ب: الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، ر:1955، م س، ص940، 941.

2- رواه البخاري، باب البغي، ر: 593، الأدب المفرد، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السّلفية، القاهرة، مصر، د ط، س1375هـ، ص155.

3- رواه البخاري، ك: الذبائح والصيد والتسمية على الصيد، ب: ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثّمة، ر:5515، الجامع الصّحيح، ج03، ص460.

4- رواه البخاري، ك: أحاديث الأنبياء، ر: 3482، عن عبد الله بن عمر ﷺ، الجامع الصّحيح، ج02، ص500.

5- سبق تخرجه.

6- سبق تخريجه.

7- رواه مسلم، ك: الزّكاة، ب: بيان أنّ اسم الصّدقة يقع على كل نوع من المعروف، ر: 1007، عن عائشة رضي الله عنها، م س، ص448.

8- رواه النّسائي، ك: المساجد، ب: البصاق في المسجد، ر: 723، عن أنس بن مالك ﷺ، السّنن، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرّياض، م ع س، ط01، س1417هـ، ص121.

9- رواه النّسائي، ك: الطّهارة، ب: التّرغيب في السّواك، ر: 05، عن عائشة رضي الله عنها، م س، ص10.

10- رواه البخاري، ك: الوضوء، ب: البول في الماء الدّائم، ر:239، عن أبي هريرة ﷺ، الجامع الصّحيح، ج01، ص96.

في أوانيها حتّى لا يصيبها ما يلوّثها، فقال: ((**غطّوا الإناء وأوكوا السّقاء؛ فإنّ في السّنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء**))[1]؛ وأمر ﷺ بحماية الهواء من التّلوّث فحثّ كلّ من أراد قضاء حاجته أن يتوارى عن الأنظار، ويبتعد عن البيوت لما رواه الْمُغِيرَة بْن شُعْبَةَ ﷺ قَالَ: (كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ حَاجَتَهُ فَأَبْعَدَ فِي الْمَذْهَبِ)[2]، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي قُرَادٍ ﷺ قَالَ: (خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَلَاءِ وَكَانَ إِذَا أَرَادَ الْحَاجَةَ أَبْعَدَ)[3]؛ ونهى ﷺ عن التّخلّي في طرق النّاس وظلّتهم، دفعا للمناظر المؤذية والرّوائح الكريهة، فقال: ((**اتّقوا الملاعن الثّلاث: البراز في الموارد**، - يعني موارد المياه - **وقارعة الطّريق، والظّلّ**))[4]، وقال: ((**اتّقوا اللّاعنين**، قالوا: وما اللّاعنان يا رسول الله؟ **قال: الذي يتخلّى في طريق النّاس، أو في ظلّهم**))[5].

وليس أدلّ على هذا النّوع من الحفاظ على نقاوة الهواء، من نهيه ﷺ عن ارتياد المساجد وقد أكل الواحد ثوما أو بصلا، فقال: ((**من أكل من هذه الشّجرة** - يعني الثّوم - **فلا يقربَن مسجدنا**))[6]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ** - قال أوّل يوم: الثُّوم، ثمّ قال: الثُّوم وَالْبَصَلِ وَالْكُرَّاثِ -، **فَلَا يَقْرَبْنَا فِي مَسَاجِدِنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ الْإِنْسُ**))[7].

- **الصّبر**: وهو قوّة خلقية تمكّن صاحبها من ضبط النّفس عن الاندفاع وتدعوه إلى تحمّل المشاق في سكون وهدوء مع الحمد والشّكر، وهو نصف الإيمان لحديث: ((**عجبا لأمر المؤمن، إنّ أمره كلّه خير، وليس ذاك لأحد إلّا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له**))[8]، ونتائجه مضمونة قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ البقرة: ١٥٥، وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٩٦، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

وتتجلّى أهمّية قيمة الصّبر في حماية البيئة من خلال أمر الرّسول ﷺ المؤمنين في أحاديث كثيرة بالاهتمام بغرس الأشجار واستغلال الأرض، وجعل ذلك من القربات التي يتقرّب بها العبد إلى ربه، فعنه ﷺ قال: ((**ما من مسلم غرس**

1- رواه مسلم، ك: الأشربة، ب: الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السّقاء، ر: 2014، عن جابر بن عبد الله ﷺ، م س، ص970.

2- رواه الترمذي، أبواب الطهارة، ب: ما جاء أنّ النّبي ﷺ كان إذا أراد الحاجة أبعد في المذهب، ر: 20، م س، ج01، ص71.

3- رواه النّسائي، ك: الطهارة، ب: الإبعاد عند إرادة الحاجة، ر: 16، م س، ص12.

4- رواه أبو داود ، ك: الطّهارة، ب: المواضع التي نهى النّبي ﷺ عن البول فيها ، ر: 26، م س، ص10.

5- رواه أبو داود، ك: الطّهارة، ب: المواضع التي نهى النّبي ﷺ عن البول فيها، ر: 25، عن أبي هريرة ﷺ، م س، ص10.

6- رواه البخاري، ك: الأذان، ب: ما جاء في الثّوم النّيّء والبصل والكرّاث وقول النّبي ﷺ من أكل الثّوم أو البصل من الجوع أو غيره فلا يقربن مسجدنا، ر: 853، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، الجامع الصّحيح، ج01، ص274.

7- رواه النّسائي: ك: المساجد، ب: من يُمنع من المسجد، ر: 707، م س، ص118.

8- رواه مسلم، ك: الزّهد والرّقائق، ب: المؤمن أمره كله خير، ر: 2999، عن صهيب ﷺ، م س، ص1364، 1365.

**غرساً، فأكل منه إنسان أو دابّة، إلّا كان له صدقة))**[1]، وقال: ((**من نصب شجرة، فصبر على حفظها، والقيام عليها حتّى تثمر كان له في كلّ شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عزّ وجلّ**))[2].

كما تعتبر السّنّة النّبوية أنّ مهمّة الغرس والزّرع واستغلال الأرض من المهامّ المستديمة للإنسان، حتّى ولو أشرفت هذه الدّنيا على النّهاية، فقال ﷺ: ((**إن قامت السّاعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتّى يغرسها فليغرسها**))[3]؛ وهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي وردت في ذات الموضوع توضّح أنّ غراسة الأرض وزراعتها واستغلال الموارد الطّبيعية مبدأ من مبادئ التّشريع الإسلامي المؤدّية إلى المحافظة على البيئة، إذ كما نعلم أنّ اخضرار الأرض بأشجارها وزروعها مصدر من مصادر المحافظة على بيئة صحّية ونظيفة.

- **الشّعور بالمسؤولية**: وذلك بقصد المحافظة على التوازن البيئي وعدم العبث بالموارد الطبيعية وحفظ حق الأجيال في استغلالها واعتبار أن الحياة مسئولية عامة إذا أخل بها نفر سار ضرره على الباقين، فعن النبي ﷺ قال: ((**مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**))[4].

وهذا الحديث يوضّح قيمة مهمّة في الشّريعة الإسلامية وهي أنّ حرّية الفرد مرهونة بما يلحق الآخرين من ممارستها، فمتى ما لحق بالآخرين ضرر منع الفرد من مزاولة ما يريده وانعكاسات ذلك في مجال البيئة كثيرة فالمزارع ممنوع من أن يستعمل الأدوية والمبيدات الضّارة بصحّة الإنسان والحيوان حتى ولو كانت هذه تمكنه من زيادة إنتاجيته ودخله، وكذلك الصانع وغيره من الحرف التي تستغل الموارد الطبيعية، وهذا التوجيه النبوي يشرع أخلاقيات سامية في التعامل مع الطبيعية ومواردها وفي الحفاظ عليها ومنع أنانية الأفراد من تملكها والعبث بها.

- **الرّحمة**: وهي رقّة في القلب تدعو صاحبها إلى الشّعور بمشاعر الغير فيشاركهم آلامهم ومسرّاتهم[5]، وقد حثّ عليها النّبي عليه ﷺ بقوله: ((**الرّاحمون يرحمهم الرّحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السّماء، الرّحم شُجْنَة من الرّحمن، فمن وصلها؛ وصله الله، ومن قطعها؛ قطعه الله**))[6]، وبذلك يكون المؤمن ممّن قال فيهم الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ البلد: ١٧.

والنّاظر في السّنّة النّبوية المطهّرة يدرك ما للرّحمة من أثر في العناية بالبيئة والحفاظ عليها، فعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: ((**أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدِّث به أحدًا من النَّاس، وكان أحبّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى**

1- رواه البخاري، ك: الأدب، ب: رحمة النّاس والبهائم، ر: 6012، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، الجامع الصّحيح، ج04، ص93، 94.

2- رواه أحمد، مسند المدنيين، حديث من شهد النبي ﷺ، ر: 16586، م س، ج27، ص128، 129.

3- رواه البخاري، ب: اصطناع أموال، ر: 479، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، الأدب المفرد، ص126.

4- رواه البخاري، ك: الشّركة، ب: هل يُقرع في القسمة والاستهام فيه، ر: 2493، عن النّعمان بن بشير رضي الله عنه، الجامع الصّحيح، ج02، ص205، 206.

5- م س: الرّاغب الأصفهاني، ج01، ص253.

6- رواه التّرمذي: أبواب البرّ والصّلة عن رسول الله ﷺ، ب: ما جاء في رحمة المسلمين، رقم: 1924، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، م س، ج03، ص483.

النّبيَّ ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النَّبي ﷺ فمسح ذفراه، فسكت، فقال: **من ربّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟** فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله؛ فقال: **أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها؟ فإنّه شكا إليَّ أنّك تجيعه وتُدْئِبُه**))[1]؛ وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ((كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرةُ فجعلت تفرُش، فجاء النَّبي ﷺ فقال: **من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها**، ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: **من حرَّق هذه؟** قلنا: نحن، قال: **إنَّه لا ينبغي أن يعذِّب بالنَّار إلَّا ربُّ النَّار**))[2]؛ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ((أنَّ النَّبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: **إن شئتم**، فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النّخلة صياح الصّبي، ثم نزل النَّبي ﷺ فضمَّه إليه، يئنُّ أنين الصّبي الذي يُسَكَّن، قال: **كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذّكر عندها**))[3].

ولله درّ الشّاعر حين دعا إلى العطف على الكائنات جميعها، مقدّماً صورة بليغة ومعبّرة عن إحساس النّبات وشكواه إلى الله من عنف الإنسان وقسوته، فقال:

ارحم الغصن لا تنله بسوءٍ     قد يحسّ النّبات كالإنسان
واستمع للحفيف منه تجده     بات يشكو الإنسان للرّحمن[4]

- **الزّهد:** وهو انصراف القلب والنّفس عن طلب الدّنيا والرّغبة في متاعها وملذّاتها، إلى طلب الآخرة والرّغبة في نعيمها وحصول السّعادة الأبدية فيها؛ لأنّ الآخرة أبقى من الدّنيا، ولأنّ متاع الدّنيا وملذّاتها منغصة بالآفات والابتلاءات والأمراض، ونزول الموت، أما الجنّة فليس فيها شيء من تلك المنغّصات والآفات، بل طهّرها الله وسلّمها من ذلك كلّه،[5] قال ﷺ: ((**والله ما الدّنيا في الآخرة، إلّا مثل ما يجعل أحدكم إصْبَعَه في اليمّ فلينظر بم يرجع!**))[6]، وبه أمر النّبي ﷺ، فعَنْ أُمِّ الْمُنْذِرِ قَالَتِ: اطَّلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ذَاتَ عَشِيَّةٍ إِلَى النَّاسِ، فَقَالَ: ((**أَيُّهَا النَّاسُ، أَمَا تَسْتَحْيُونَ اللَّهَ؟** قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **تَجْمَعُونَ مَا لا تَأْكُلُونَ، وَتُؤَمِّلُونَ مَا لا تُدْرِكُونَ، وَتَبْنُونَ مَا لا تُعَمِّرُونَ**))[7].

---

1- رواه مسلم: ك: الحيض، ب: ما يستتر به لقضاء الحاجة، ر: 342، م س، ص165.
2- رواه أبو داود، ك: الجهاد، ب: في كراهية حرق العدوّ بالنّار، ر: 2675، م س، ص470.
3- رواه البخاري، ك: المناقب، ب: علامات النّبوّة في الإسلام، ر: 3584، الجامع الصّحيح، ج02، ص525.
4- ديوان صدى الأيام، محمد رجب البيومي، نقلا عن: من القيم الإنسانية في الإسلام، محمّد رجب البيومي، مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ج01، ص42.
5- نضرة النعيم: مجموعة من الباحثين، ج06، ص2218.
6- رواه مسلم: ك: الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، ب: فناء الدّنيا وبيان الحشر يوم القيامة، ر: 2858، عن المستورد بن شداد ﷺ، م س، ص1308.
7- رواه البيهقي، ب: في الزّهد وقصر الأمل، ر: 10562، شعب الإيمان، تح: أبي هاجر محمّد السّعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، س1421هـ/ 2000م، ج07، ص354، 355.

وفضلا عن أنّ الزّهد يجني أهله: محبّة الله عزّ وجل، ومحبّة النّاس، والتّأسي بالرّسول ﷺ وبصحبه الكرام ﷺ، مع الشّعور بالرّاحة في الدّنيا والسّعادة في الآخرة[1]؛ فإنّ للتّحقّق بمقام الزّهد دور كبير في حماية البيئة، كونه يغرس في نفس المسلم القناعة، ويصرفه عن التّعلّق بالملذّات الفانية، ويحدّ من نزعة الجشع والطّمع لديه، لحديث: ((**إنّ صلاح أوّل هذه الأمّة بالزّهد واليقين، وهلاك آخرها بالشّحّ والأمل**))[2]، وفي رواية: ((**نجا أوّل هذه الأمّة باليقين والزّهد، ويَهْلِك آخِرُها بالبخل والأمل**))[3]؛ وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ﷺ يقول في خطبته على المنبر: (تعلمون إنَّ الطّمع فقر، وإنّ الإياس غنى)[4]، ذلك أنّه يؤدّي إلى الاستنزاف الأقصى للموارد، وهذا من شأنه أن يُفْقِر الأرض من مواردها؛ وممّا أنشده الكُريزي:

واليأس ممّا فات يُعْقِبُ راحة ولرُبَّ مَطْمَعَة تَعُودُ ذُبَاحًا[5]

هذه بعض النّماذج من القيم الأخلاقية التي تُسْهِم في الحفاظ على البيئة من خلال توجيه المسلم إلى العناية بنفسه ومحيطه وإرشاده إلى أنّ المحافظة على نعم الله التي أنعم بها على خلقه سبيل إلى مرضاته سبحانه وتعالى، كما أنّ العبث بها ومنع الآخرين من الاستفادة منها يوجب سخطه وغضبه؛ فما أشدّ حاجتنا اليوم إلى إحياء هذه القيم الأخلاقية ذات التّأثير الرّاقي في تعامل الإنسان مع بيئته، فالأخلاق الفاضلة تتهمّش ما لم تُوظّف.

## المسؤولية الأخلاقية عن الإضرار بالبيئة:

لقد سبق التّشريع الإسلامي النّظريات الاقتصادية والتّنبّؤات البيئية في دعوته إلى المحافظة على البيئة بجميع مكوّناتها، وهذه الدّعوة نابعة من منظومة إيمانية تراعي دور القيم والأخلاق في توجيه الاقتصاد وترشيد أنماط الاستهلاك[6]؛ ومن هنا عدّ الإسلام المحافظة على البيئة شعبة من شعب الإيمان، كما جاء في تمثيل رسول الله ﷺ لأدنى وسائل هذه المحافظة في قوله: ((**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول :لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان**))[7]؛ إذ الإسلام لا يربط العبادة بالشّعائر الدّينية فقط، بل هي في منظوره الرّاقي تتجاوز ذلك، فهي تعني الالتزام الصّادق بالتّوجيهات الإسلامية في كلّ مضمار، وعليه تكون صيانة الموارد عبادة، والرّفق بالحيوان عبادة، والمعاملة الحسنة عبادة ....إلخ).

---

1- نضرة النعيم: مجموعة من الباحثين ، ج06، ص2234.

2- رواه أحمد، زهد الرّسولﷺ، عَنْ عبد الله بن عَمْروﷺ،كتاب الزّهد، تح: محمّد جلال شرف، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، د ط، س1981م، ص43.

3- رواه ابن أبي الدّنيا، ك: اليقين، ر: 03، عَنْ عبد الله بن عَمْرو ﷺ، موسوعة رسائل ابن أبي الدّنيا: تح: مصطفى عبد القادر عطا، مؤسّسة الكتب الثّقافية، بيروت، لبنان، ط01، س1414هـ/ 1993م، ج01، ص17.

4- رواه ابن المبارك: ب: في طلب الحلال، ر: 586، الزهد والرّقائق، تح: أحمد فريد، دار المعراج الدّولية، الرّياض، م ع س، ط01، س1415هـ/ 1995م، ج01، ص223.

5- روضة العقلاء: أبو حاتم البستي، تح: عبد العليم محمّد درويش، منشورات الهيئة العامّة السّورية للكتاب، دمشق، سوريا، د ط، س2009م، ج02، ص565.

6- المحافظة على البيئة من منظور إسلامي – دراسة تأصيلية في ضوء الكتاب والسّنّة ومقاصد الشّريعة -: قطب الرّيسوني، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط01، س2008م، ص69.

7- سبق تخريجه.

وانطلاقا من هذا التّصور الشّمولي لمفهوم العبادة في الإسلام يصبح الالتزام بالقيم الأخلاقية للبيئة بشتّى مكوّناتها وعناصرها أمرا إلهيا يكتسي صفة الوجوب والطّاعة، وإلّا كفر الإنسان بأنعُم الله تعالى، قال عزّ وجل: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ القصص: ٧٧، ذلك أنّ التّصوّر الإسلامي لحماية البيئة يصدر عن منظومة إيمانية ترتكز على ثلاثة أسس:

**الأوّل: هو الأساس التّوحيدي:** فالتّوحيد جوهر الأديان والرّسالات السّماوية، وهو المصدر الرّافد للتّديّن والأخلاق والسّلوك الاجتماعي؛ فكل عمل يوزن بميزانه، ويقاس بمقياسه فيكون الفلاح والفوز، أو الخسران وإحباط العمل[1].

والعمل الصّالح طريق إلى التّوحيد الحقّ، إذ به يزكو الإيمان، ويتقوّى الورع، وتتحقّق العبودية لله تعالى في أمثل صورة وأقومها، ومن شعب هذا العمل: رعاية البيئة من جهة العدم ومن جهة الوجود، أي صونها من دواعي الإفساد والإتلاف، فكلّ مكوّنات البيئة هي مخلوقات لله تعالى، تسبح بحمده وتخشع لعظمته، والتّعدي عليها تعطيل لوظيفتها التّوحيدية، ففي الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: ((**قرصت نملة نبيا من الأنبياء، فأمر بقرية النّمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمّة من الأمم تسبّح؟**))[2].

والإيمان بالله تعالى إيمان بالرّقابة الدّائمة على أعمال الإنسان في الدّنيا، ومن شأن هذه الرّقابة أن تعمّق الوعي بالمسؤولية وتحفّز إلى الالتزام بآداب التعامل مع المخلوقات والإحسان إليها[3].

**الثّاني: الأساس الاستخلافي:** فقد كرّم الله تعالى الإنسان وجعله خليفة في الأرض ليعمرها وينشئ فيها منافعه بما يتوافق وسنن الفطرة ونواميس الكون، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ الأنعام: ١٦٥، والقصد من هذا الاستخلاف الاختبار والنّظر في صنيع المستخلف، هل يحسن التدبير أو يسيئه؟[4]؛ وهذا ما صرّح به رسول الله ﷺ في قوله: ((**إنّ الدّنيا حلوة خضرة، وإنّ الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعلمون**))[5].

فالإنسان ليس إلّا وصيا على هذه البيئة بكلّ مكوّناتها، وإذا كانت الشّريعة قد أباحت له استغلال الموارد البيئية استيفاء لمصالحه وتحقيقا لرغباته، فإنها لم تمكّنه من السّيادة التّامة، فقد ألزمته بالاعتدال وحسن التّصرف، وقيدته بواجب التّزكية والتّنمية مع دفع أسباب التّخريب والإتلاف[6]، ومن هنا كانت البيئة أمانة لدى المستخلف يتصرف فيها بحدود يراعى فيها الانتفاع المعتدل والاستثمار القويم.

---

1- م س: قطب الرّيسوني، ص41

2- رواه البخاري، ك: الجهاد والسّير، ر:3019، عن أبي هريرة ﷺ، الجامع الصّحيح، ج02، ص364.

3- م س: قطب الرّيسوني، ص :41.

4- م ن، ص 41، 42.

5- رواه مسلم، ك: الرّقاق، ب: أكثر أهل الجنة الفقراء، ر: 2742، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، م س، ص1256، 1257.

6- م س: قطب الرّيسوني، ص41.

**الثّالث: الأساس الأخروي:** إنّ الإيمان باليوم الآخر ركن عقدي يؤثّر في توجيه علاقة الإنسان ببيئته في إطار مبدأين:

**أحدهما:** مبدأ الحلال والحرام، وهو ضابط متين لعلاقة الإنسان بالبيئة وكيفية استغلالها، فسلطة التّحليل والتّحريم من حقّ الله تعالى، فلا يجوز للإنسان التّطاول عليها رغم ما أوتي من علم وحكمة، لأنّ العقل البشري يبقى قاصرا على إدراك استقلال وجوه المصالح والمفاسد ومآلات الأفعال من حيث النّفع والضرّ، فضلا عن تأثّره بدواعي الهوى والتّشهي وموافقة الغرض؛ لذا يجب الاحتكام إلى المنهج الإلهي المعصوم في التّشريع والتّقنين لأنّه الحقّ الذي ما بعده إلّا الضّلال.

وفي ضوء هذا المبدأ يميّز الإنسان بين الصّالح والطّالح، والضّار والنّافع، فكلّ ما من شأنه أن يفضي إلى الانتفاع بالموارد البيئية ويعود عليه بالخير والصّلاح فهو حلال، بل قد يعتري فعله أو السّعي إليه حكم الوجوب، ولا سيما ما يدلي بسبب أو نسب إلى حفظ الضّروريات الخمس (الدّين، النّفس، النّسل، العقل، المال) جلبا للمصالح ودرءا للمفاسد؛ ومن ثمّ فكلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الإخلال بتوازن البيئة وإتلاف مواردها فهو حرام تستنكره النّصوص العامّة في النّهي عن الإفساد، والنّصوص الخاصّة في حفظ المجال البيئي[1].

**وثانيهما:** مبدأ الحساب والعقاب، الذي يترتّب على المبدأ الأوّل ترتّبا مباشرا، فإذا التزم الإنسان بالأمر الإلهي امتثالا بالمأمورات واجتنابا للمنهيات، ثقلت الموازين وتحقّق الفوز، وإذا حدث العكس، وتمّت مخالفة الأمر الإلهي تعمّدا وتقصّدا استحقّ المخالف العقاب والحساب.

وهذا المبدأ خير حافز للإنسان على الإحسان إلى البيئة، ومراعاة شرائع الله تعالى فيها حماية وتنمية، لأنّه مستشعر للرّقابة الدّائمة وطامع في الفوز بالنّعيم الأخروي، لذلك كان تحقيق الاستخلاف بصورته المثلى ومقصده العالي شرطا للنّجاة من العذاب في الآخرة[2]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الكهف: ١١٠.

## الخاتمة:

بعد هذه الجولة الماتعة في رياض نصوص الوحي بشقيه متلوّا وغير متلوّ، وفي ظلال القيم الأخلاقية الوارفة، يحسن بالباحث قبل أن يضع القلم أنْ يسجّل أهمّ النّتائج المتوصّل إليها، مع بعض المقترحات التي يرى ضرورة العناية بها.

**النّتائج:**

1- تمتاز نظرة التّشريع الإسلامي للبيئة بالشّمول والتّكامل.

2- البيئة قضية أكبر من أن تكون مجموعة من الموارد والثّروات، إذ هي علاقة إنسانية يمتزج فيها الدّنيوي بالدّيني، والمادّي بالقيمي، لصياغة حياة إنسانية، تليق بالرّسالة التي كلّف بها الإنسان على الأرض.

3- يتوفّر التّشريع الإسلامي على جملة وافية من القيم الأخلاقية التي تكفي للتّغلّب على المأزق البيئي المتدهور.

---

1- م ن، ص42

2- م ن، ص43.

4- الأخلاق البيئية قيمة لا غنى عنها، إذ يتعامل بها الأفراد والمجتمعات مع مواردهم الطّبيعية، وكيفية استغلالها الاستغلال الأمثل، بما يحافظ على نصيب الأجيال القادمة منها، لا سيما الموارد غير المتجدّدة.

5- يعتمد التّشريع الإسلامي مبدإ الوقاية خير من العلاج لحلّ كثير من المشاكل البيئية.

6- يتميز التّشريع الإسلامي بحتمية التّنفيذ أخلاقيا، في حين تفتقر المواثيق الدّولية والتّشريعات الوطنية إلى ذلك، فضلا عن أنّها تطبق على الدّول الضّعيفة دون الدّول الكبرى ذات الهيمنة.

**المقترحات:**

1- تضمين المناهج التّربوية والتّعليمية في جميع الأطوار القيمَ الأخلاقية للبيئة.

2- استحضار الجهات المختصّة بوضع التّشريعات للقيم الأخلاقية الحامية للبيئة والضّامنة لاستدامة التّنمية عند صياغة القوانين البيئية.

3- الحرص على الانتقال بالقيم الأخلاقية للبيئة من الحيّز النّظري إلى التّطبيقات العملية في واقع الحياة.

4- تشجيع المشاريع البيئية التي تسهم في المحافظة على البيئة ورعايتها.

5- سن القوانين والعقوبات الزّاجرة في حقّ كلّ من تجاوز الحدود في معاملته للبيئة ومكوّناتها.

6- والحمد لله أوّلا وأخيرا، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّه الكريم، وآل بيته الطّيبين الطّاهرين، وصحابته الغرّ الميامين.

## المصادر والمراجع


1- أحكام البيئة في الفقه الإسلامي: عبد الله عمر السّحيباني، دار ابن الجوزي، الرّياض، م ع س، د ط، س2008م.

2- أخطار البيئة والنّظام الدّولي: عامر محمود طراف، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، د ط، س1998م.

3- الأدب المفرد: البخاري ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السّلفية، القاهرة، مصر، د ط، س1375هـ.

4- تقرير اللّجنة المعنية بالبيئة والتّنمية بعنوان: "مستقبلنا المشترك"، الوثيقة A/42/4427.

5- الجامع الصّحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه: البخاري، تح: محبّ الدّين الخطيب، المكتبة السّلفية، القاهرة، مصر، ط01، س1400هـ.

6- الجامع الكبير: التّرمذي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط01، س1996م.

7- رعاية البيئة في شريعة الإسلام: يوسف القرضاوي، دار الشّروق، القاهرة، مصر، ط02، س1427هـ/2006م.

8- رعاية البيئة من خلال التّقعيد الأصولي والفقهي: محمّد بن عبد العزيز المبارك، مجلّة الجمعية الفقهية السّعودية، الرّياض، م ع س، ع17، شوال- محرّم 1434- 1435هـ/ 2013م.

9- روضة العقلاء روضة العقلاء: أبو حاتم البستي، تح: عبد العليم محمّد درويش، منشورات الهيئة العامّة السّورية للكتاب، دمشق، سوريا، د ط، س2009م.

10- الزهد والرّقائق: ابن المبارك، تح: أحمد فريد، دار المعراج الدّولية، الرّياض، م ع س، ط01، س1415هـ/ 1995م.

11- السّلفية وقضايا العصر: عبد الرّحمن بن زيد الزّنيدي، مركز الدّراسات والإعلام، دار إشبيليا، الرّياض، م ع س، ط01، س1418هـ/ 1998م.
12- السّنن: أبو داود، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرّياض، م ع س، ط01، س1417هـ.
13- السّنن: ابن ماجه، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرّياض، م ع س، ط01، س1417هـ.
14- السّنن: النّسائي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرّياض، م ع س، ط01، س1417هـ.
15- شعب الإيمان: البيهقي، تح: أبي هاجر محمّد السّعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، س1421هـ/ 2000م.
16- الصّحاح: الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط04، س1990م.
17- العقد الفريد: ابن عبد ربّه، تح: مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، س1404هـ/ 1994م.
18- علم النّفس الاجتماعي: حامد زهران، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط01، س1977م.
19- غياث الأمم في التياث الظُّلَم: الجويني، تح: فؤاد عبد المنعم، ومصطفى حلمي، دار الدّعوة، الإسكندرية، مصر، ط01، س1979م.
20- القاموس المحيط: الفيروزآبادي، الهيئة العامّة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، ط مصورة عن الطّبعة الثّالثة للمطبعة الأميرية 1302م، س1400هـ/ 1980م.
21- كتاب التعريفات: الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط ج، س1985م.
22- كتاب الزّهد: أحمد، تح: محمّد جلال شرف، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، د ط، س1981م.
23- لسان العرب: ابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير ورفاقه، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ط، دس.
24- ماهية البيئة: أسامة عبد العزيز، متاح على: knol.google.com/k/judge-dr-osama albdelaziz، تاريخ الزّيارة: 2019/01/16م، في السّاعة: 06:12.
25- المحافظة على البيئة من منظور إسلامي: قطب الرّيسوني، دراسة تأصيلية في ضوء الكتاب والسّنّة ومقاصد الشّريعة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط01، س2008م.
26- المحصول في علم أصول الفقه: فخر الدّين الرّازي، تح: طه جابر فيّاض العلواني، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط03، س1418 هـ/ 1997م.
27- مدارج السّالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيّم، تح: محمّد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط07، س1423هـ/ 2003م.
28- المسند: أحمد، تح: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط1، س1418هـ/ 1997م.

29- المسند الصّحيح المختصر من السّنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم، تح: أبو قتيبة نظر محمّد الفاريابي، دار طيبة، الرّياض، م ع س، ط01، س1427هـ/ 2006م.
30- المعجم الكبير: الطبراني، تح: حمد عبد المجيد السّلفي، دار ابن تيمية، القاهرة، مصر، ط02، س1397هـ.
31- معجم مقاييس اللّغة: ابن فارس، تح: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط01، س1399هـ/ 1979م.
32- مفردات ألفاظ القرآن: الرّاغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدّار الشّامية، بيروت، لبنان، ط02، س1418هـ/ 1997م.
33- المقاصد التحسينية عند الأصوليين ضوابطها وأثرها الفقهي: ليلى شادة، رسالة ماجستير، إشراف: عبد القادر بن حرز الله، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، س1435هـ/2014م.
34- مقاصد الشّريعة الإسلامية: محمّد الطّاهر بن عاشور، تح: محمّد الطّاهر الميساوي، دار النّفائس، عمّان، الأردن، ط02، س1421هـ/ 2001م.
35- المنظور الإسلامي لقضايا البيئة – دراسة مقارنة –: محمّد محمود السّرياني، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرّياض، م ع س، ط01، س1427هـ/ 2006م.
36- من القيم الإنسانية في الإسلام، محمّد رجب البيومي، مجلة الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، مصر، دط، د ت.
37- الموافقات في أصول الشّريعة: الشّاطبي، تح: عبد الله دراز، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط01، س1425هـ/ 2004م.
38- موسوعة رسائل ابن أبي الدّنيا: ابن أبي الدّنيا، تح: مصطفى عبد القادر عطا، مؤسّسة الكتب الثّقافية، بيروت، لبنان، ط01، س1414هـ/ 1993م.
39- موسوعة نضرة النّعيم في أخلاق الرّسول الكريم ﷺ: مجموعة من الباحثين، دار الوسيلة، جدّة، م ع س، ط01، س1418هـ/ 1998م.
40- الموطّأ: مالك، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط02، س1417هـ/ 1997م.
41- Laetitia GRAMMATICO, Les moyens juridiques du développement énergétique dans le respect de l'environnement en droit français ( Recherches sur le droit du développement durable ) , T.1 , PUAM , 2003
42- Le Petit Robert , 1 , paris , 1991.
43- Petit Larousse en couleurs , paris , 1980
44- The world book Dictionary . V. I. 1988 , world Book Ink, U.S.A.